الفصل الثالث
عصمة الأنبياء

١ ـ تعريف العصمة ومعناها اللغوي والشرعي .
٢ ـ هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟
٣ ـ شبهات حول عصمة الأنبياء والردُّ عليها .
٤ ـ عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام .
٥ ـ عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
٦ ـ عصمة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام .
٧ ـ عصمة نوح عليه السلام .
٨ ـ عصمة يونس عليه السلام .
٩ ـ عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .
١٠ ـ الآيات التي ورد فيها العتاب .

عصمة الأنبياء

من المزايا التي امتاز بها الأنبياء على بقية البشر، بعدهم عن اقتراف المعاصي وعزوفهم عن الشهوات واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة، أو يهدر الكرامة، أو يحط من قدر الإنسان. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس خلقاً وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعطرهم سيرة، لأنهم «القدوة» للبشر وهم الأسوة الحسنة للإنسانية، ولذلك أمر الله عز وجل بالاقتداء بهم، والتخلق بأخلاقهم، والسير على منهاجهم في جميع شؤون الحياة، قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ...﴾[١].

وقال تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[٢].

وقال تقدَّست أسماؤه:

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾[٣].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٢١).
(٣) سورة صٓ: الآية (٤٧).

تعريف العصمة ومعناها اللغوي والشرعي

ـ ١ ـ

العصمة في اللغة معناها: المنع، يقال: عصمته عن الطعام، أي: منعته عن تناوله، وعصمته عن الكذب، أي: منعته منه، ومنه قوله تعالى:

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[1] الآية، أي: يمنعني من الغرق.

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾[2] أي امتنع امتناعاً شديداً.

وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله.. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[3]. أي منعوا مني دماءهم وأموالهم.

قال القرطبي: وسميت العصمة عصمةً لأنها تمنع من ارتكاب المعصية.

ومن الخطأ الفاحش ما يقوله البعض: العصمة لله وحده، أو العصمةُ للَّهِ ولرسله، فإنَّ العصمة إنَّما تكون من الجرائم والذنوب، فلا تصحُ نسبتها إلى الله جلَّ وعلا.

---

(١) سورة هود: الآية (٤٣).   (٢) سورة يوسف: الآية (٣٢).

(٣) الحديث رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وانظر البخاري ١/ ٧٠، كتاب الإيمان؛ ومسلم برقم ٢٢ من كتاب الإيمان أيضاً.

وأما في الشرع: فالعصمة هي: حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والمحرمات.. فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، وميزهم على سائر البشر، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى، وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرِها وكبيرها.. فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر.

والحكمة من ذلك: أن الله عز وجل: أمر باتباعهم والاقتداء بهم، والسير على نهجهم، فهم «القدوة الحسنة» والأسوة الصالحة للخلق. والنموذج الكامل للبشرية جمعاء، فلو جاز وقوعهم في المعصية، أو ارتكابهم للموبِقات والآثام، لأصبحت المعصية مشروعة، أو أصبحت طاعتهم علينا غير واجبة، وهذا غير سليم، بل هو أمر مستحيل، فالأنبياء هم القادة، وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة، وينهى عن الرذيلة، ثم يرتكب هو أنواع الفواحش والمنكرات؟! ثم إن المعاصي والذنوب ما هي إلا «نجاسات معنوية». وهي تشبه القاذورات والنجاسات الحسية، فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء والرسل الكرام؟

وقد جاء في الحديث الشريف ما يشير إلى أن المعصية نجاسة باطنة وذلك في قوله ﷺ:

«من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، فإنه من يُبْدِ لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله» أو كما ورد والمعنى: من يظهر المعصية ويعلنها فلا بد من إقامة الحد عليه.

فالعقل والشرع يُلزمان القول (بعصمة النبي) إذْ: كيف يجوز أن يكون نبياً ويكون سارقاً، أو قاطع طريق، أو شارب خمر، أو زانياً أو غير ذلك من القاذورات والنجاسات التي تمنع من الاقتداء به، أو من اتّباعه؟!.

وهل يكون لكلام النبي أثر في النفوس إذا كانت سيرته غير عطرة، أو كانت حياته ملوثة ببعض الموبِقات والآثام؟!.

إذاً فلا بد من أن تكون حياة (النبي) حياة كريمة فاضلة، مشرقة بنور الهداية، معروفة بالعفة والطهارة، زاخرة بالفضل والنبل والصلاح، وهذا ما يسمى بـ (عصمة الأنبياء)!.

جاء في كتاب «العقيدة الإسلامية»[1] في باب صفة العصمة ما نصُّه:

«وحيث ثبت أن الرسول هو «المثل الأعلى» في أمته، الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له ــ إلا ما كان من خصائصه بالنص ــ وجب أن تكون كل اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى، ووجب أن لا يدخل في شيء من اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، معصية لله تعالى، لأن الله تعالى أمر الأمم بالاقتداء برسلهم، فإذا أمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوةً ــ في حال المعصية وحدوثها منهم ــ أمراً بالمعصية، وفي هذا تناقض ظاهر».

عصمة الله لرسوله منذ الطفولة:

وقد حفظ الله تعالى نبينا ﷺ منذ طفولته، وعصمه من أفعال الجاهلية في صغره وشبابه، إلى أن جاءته النبوة فأكملت عليه النعمة وتمت له «العصمة» بتشريفه بتحمل أعباء الرسالة على الوجه الأتم الأكمل.

قال (ابن هشام) في السيرة النبوية:

(فشبَّ رسول الله ﷺ والله تعالى يكلأه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم

---

(١) هو كتاب لأخينا الفاضل الأستاذ (عبد الرحمن حبنكة) الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، وهو من الكتب النفيسة في العقيدة الإسلامية وفقه الله.

حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله ﷺ ـ فيما ذُكر لي ـ يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره، وأمر جاهليته، أنه قال:

«لقد رأيتني في غلمان من قريش، ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأُدبر، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»[1].

قال (السهيلي) في التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت في الحديث الشريف في حين بنيان الكعبة، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس رضي الله عنه: يا ابن أخي، لو جعلت إزارك على عاتقك ففعل فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزاري، إزاري، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة. وحديث ابن إسحق ـ إن صح ـ أنه كان في صغره، فمحمله على أن هذا الأمر كان مرتين، مرة في صغره، ومرة في شبابه.

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٩٤.

هل العصمة قبل النبوة أو بعدها؟

ـ ٢ ـ

وقد اختلف العلماء في (عصمة الأنبياء) هل هي قبل النبوة أم بعدها؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟.

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها، وذلك لأن السلوك الشخصي ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي، فلا بد إلا وأن يكون إذاً من ذوي السيرة العطرة، والصفاء النفسي، حتى لا يكون ثَمة مطعن في رسالته ودعوته.

واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام:

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾(١).

وجعلهم من المصطَفيْن الأخيار:

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾(٢).

فلا بد إذاً أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها.

---

(١) سورة طه: الآية (٣٩).

(٢) سورة صٓ: الآية (٤٧).

وأما الفريق الآخر: فقد ذهبوا إلى أن (عصمة الأنبياء) إنما تكون بعد النبوة، وتكون من الصغائر والكبائر معاً، لأن البشر ليسوا مأمورين باتباعهم قبل النبوة، فالاتباع والاقتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة، وأما قبلها فإنما هم كسائر البشر، ومع ذلك فإن سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام، أو الانجراف في طريق الفاحشة والرذيلة فإنهم ولو كانوا قبل النبوة غير معصومين، لكنهم محفوظون بالعناية والفطرة.

جاء في كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها) ما نصه: (إن النبي قبل اصطفائه بالنبوة على وجهين:

١ ـ فهو إما أن يكون لم يكلف بعدُ مطلقاً بشرع ما، فالعصمة في حقه غير ذات موضوع، لأن المعاصي والمخالفات بعد ورود الشرع والتكليف به، والمفروض أنه لم يكلف، فلا مجال لبحث العصمة أو عدمها، لأن الذمة خالية من التكليف.

لكن علو فطرة الرسول، وصفاء نفسه، وسمو روحه، وصحة عقله تقتضي أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه: في أخلاقه، ومعاملاته، وأمانته، وفي بعده عن ارتكاب القبائح التي تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة.

٢ ـ وإما أن يكون قد كُلف بشرع رسول سابق، كسيدنا لوط عليه السلام حينما كان تابعاً ـ قبل نبوته ـ لعمه إبراهيم عليه السلام، وكأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى قبل أن يوحى إليهم بالنبوة، وهذه الحالة لم يثبت في عصمة النبي فيها دليل قاطع، لا عن الكبائر، ولا عن الصغائر، لكن سيرة الأنبياء التي أثرت عنهم قبل نبواتهم تشهد بأنهم من أبعد الناس عن المعاصي كبائرها وصغائرها.

ولئن وقع منهم شيء من ذلك فهفوات نادرة، لا تطعن فيهم لعلو فطرتهم وصفاء نفوسهم، وسمو أرواحهم والمهمة التي سيكلفون بها فيما بعد، وإنما تقع منهم هذه الهفوات إثباتاً لبشريتهم أمام الخلائق، لئلا يرفعوهم فوق المستوى

البشـري، ويحملوهم من صفات الألـوهيـة مـا لا يمكن أن يتصفـوا بـه، فهم عبيـد مخلوقون لله تعالى، وليظهر الفرق بين أحوالهم قبل النبوة وأحوالهم بعدها[1].

والصحيـح الذي عليه المعوّل من أقوال العلمـاء هو: أن الأنبيـاء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائـر) بعد النبـوة باتفـاق، وأما قبـل النبوة فيحتمـل أن تقـع مهم بعض المخالفـات اليسيرة التي لا تخـل بالمـروءة ولا تقدح بالكرامة والشـرف.

قال العلامة (القرطبـي) رحمه الله في تفسيره الجامـع لأحكام القرآن:

«واختلف العلمــاء هــل وقـع من الأنبيــاء ــ صلوات الله عليهم أجمعيـن ــ صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصـومون من الكبـائر، ومن كـل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً، فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغـائر كلهـا كعصمتهم من الكبـائـر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيـرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوّزنـا عليهم الصغائـر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كـل فعـل من أفعـالهم يتميـز مقصـدِه من القـربـة والإبـاحــة، أو الحـظر، والمعصية.. ولا يصـح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية.

وقـال (أبو إسحـق الأسفـرايني) من علمـاء أهـل السنـة: لا يقـع من الأنبيـاء ذنوب، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر. وذلك مقتضى دليـل المعجزة، وقـال بعضهم بوقوع الصغائر منهم، ولا أصـل لهذه المقـالة، والـذي عليه الأكثـر أن ذلك غير جائز عليهم.

وقال بعض المتأخرين:

الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعـاتبهم عليها، وأخبـروا بهـا عن نفـوسهم، وتنصلوا منهـا، وأشفقـوا منهـا

---

(١) العقيدة الإسلامية للأستاذ حبنكة ص ١١٦.

وتـابوا، وكـل ذلك ورد في مـواضـع كثيرة لا يقبـل التأويـل جملتها، وإن قبـل ذلك آحادُها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيـان فهي بالنسبة إلى غيـرهم (حسنات) وفي حقهم (سيئـات) ولقد أحسن الجنيـد حيث قال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) إذ قد يُؤاخذ الوزير، بما يثاب عليه الأجير، قـال القرطبـي: وهـذا هـو الحق، فهم صلوات الله وسـلامـه عليهم، وإن كـان قـد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم ولا قدح في رُتبهم، بـل تلافـاهم واجتباهم، وهـداهم وزكّاهم، واختـارهم واصـطفـاهم[1] صلوات الله عليهم وسلامه».

هل تكون العصمة لغير الأنبياء؟

والعصمة لم تثبت لغير الأنبياء الكرام صلوات اللهوسـلامه عليهم أجمعين، إذ كـل فرد من البشـر معرض للخـطأ والانحراف، والـوقـوع في المعصيـة، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه، من الكبائر، وصانهم عن الرذائل. عن طريق «الحفظ» والتـأييـد، وهــذا من اللطف الإلـهي، لا مـن «العـصمــة» الـتي خص الله بـهـا رسله وأنبياءه.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقـوا الله وآمنوا بـرسولـه يؤتِكُمْ كِفْلَين[2] من رحمتِهِ، ويجعلْ لكمْ نوراً تمشونَ بهِ، ويغفرْ لكمْ، واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

فالنور الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلـهي، الذي يكون لـلأوليـاء والأتقيـاء، أو للصـديقين من الـرجـال، وهـو من الحفظ والتـأييـد، لا من العصمة.

---

(١) انظر: جامع الأحكام للقرطبي ١/٣٠٨.

(٢) «كفلين» الكِفْلُ: الحظُ والنصيب، والمراد يؤتكم مثلين وضعفين من الأجر، والآيـة من سـورة الحديد رقم (٢٨).

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر: «والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر»[١].

ودعوى بعض المخالفين بعصمة بعض الأشخاص لا صحة لها، ولا برهان من كتاب أو سنة، وإنما هي مجرد أوهام وأحلام، فما كانت «العصمة» لأحد إلا للأنبياء، لأن الله جعلهم قدوة للعالمين[٢] كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٣].

وكل إنسان ـ عدا الأنبياء الكرام ـ معرض للخطأ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى:

(ما منا إلا من رَدَّ ورُدَّ عليه، إلاَّ صاحبُ هذا القبر) يعني بذلك النبي ﷺ بسبب العصمة.

عقيدة أهل الكتاب في الأنبياء:

وإلى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة الكمال الإنساني للأنبياء الكرام (الأسوة، والقدوة، والإمامة، والهداية للبشرية) التي يضفيها عليهم القرآن الكريم، وينعتهم بها، نجد عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تتجاوز الحد من النيل من

---

(١) هذا طرف من حديث رواه البخاري ٧/٣٧ في فضائل الصحابة؛ ورواه مسلم برقم ٢٣٩٦ في فضائل عمر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٨/٦٢٠.

(٢) انظر: رسالة «الخطوط العريضة لمذهب الشيعة الإثني عشرية» لمؤلفها الفاضل الشيخ محب الدين الخطيب فإنها نفيسة.

(٣) سورةالأنبياء: آية (٧٣).

كرامة الأنبياء الأطهار، فلا يكتفون بنسبة المعصية إليهم، وعدم الاعتقاد بعصمتهم، بل يجعلون منهم (أبطالاً) للجريمة و (قادة) للفجور والدعارة وارتكاب أعظم الآثام.

تجد في التوراة ــ المحرَّفة طبعاً ــ الشيء الكثير من هذه المخازي، منها أن أحد الأنبياء وهو (لوط عليه السلام) شرب الخمر ثم نام مع ابنتيه (وطأهما بعد أن سكر) فحملتا منه عن طريق الزنى، استغفر الله!! أي جريمة أقبح من هذه الجريمة النكراء، أن يرتكب النبي جريمة الزنى مع ابنتيه، بعد معاقرة الخمرة، يا لشناعة الأمر، وفظاعة الاتهام!!.

ونحن ننقل النص الذي ورد في التوراة، ليتبين للقارىء عقيدة اليهود في الأنبياء، ومدى الافتراء والبهتان الذي ألصقه اليهود بهم، مما نقطع ونجزم بأنها أخبار كاذبة على الأنبياء الكرام، وأنها من التحريف لكتاب الله. جاء في سفر التكوين صفحة (١٢٨) ما نصه:

«فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه، وخاف أن يسكن صاغر، وأوى إلى كهف هو وابنتاه.. فقالت الكبرى منهما للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا، فهلمي نسقيه خمراً، ونضطجع معه، ونقيم من أبينا خلفاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يعلم عن انضجاع ابنته ولا نهوضها.. ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: هوذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقه خمراً في ليلتنا هذه أيضاً، وادخلي فاضطجعي معه فنقيم نسلاً من أبينا، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها، ولم يعلم عن اضطجاعها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابين إلى يومنا هذا، وولدت الصغرى أيضاً ودعت اسمه (عمان) فهو أبو العمانيين إلى اليوم». اهـ. نعوذ باللَّهِ من الزيغ والضلال، والافتراء والبهتان.

ونجد في الباب الثامن والثلاثين من سفر التكوين ص ١٢٨ أن (يهوذا بن

يعقوب) زنا بزوجة ابنه، وحملت بالـزنى منه وولـدت توأمين (فـارض، وزارح) وأن داود وسليمان وعيسى كلهم من أولاد فارض كما هو مصرح به في البـاب الأول (من إنجيل متى).

وأن (داود) عليه السلام زنا بامرأة (أوريا) قـائد جيشـه وحملت بالـزنى فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفـر (صموئيل).

وهناك ما هو أدهى وأمر.. فإن اليهود يزعمون أن (سليمان) عليه السلام ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد، وبنى المعابد لها كما هو في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول.

ويا ليت شعري ماذا يبقى من حرمـة الأنبياء، وكيف يمكن الاقتـداء بهم، إذا كان هذا هو تاريخهم.. (سكر، وعربدة، واقتراف للجرائم الشنيعة كالزنى، وسفك الدماء، وعبادة الأوثان)؟؟

هذه بعض عقائد اليهود في أنبيائهم، وكلها كذب وزور وبهتان، ونحن نقطـع ونجزم بأنها كلها وأمثالها باطلة، وأنها من تحريـف اليهود، لا من التوراة التي أنزلهـا الله على موسى عليه السلام.

وأما (النصارى) فـإنهم لا يعتقدون بعصمـة الأنبياء وذلـك بناء على عقيـدتهم بألوهية السيد (المسيـح) عليه السلام فهو وحده المعصـوم، وكل البشـر ـ بما فيهم الأنبياء ـ يخطئون، وليس هناك شفيـع ولا مخلص سـوى (المسيـح) لأن المخطىء لا يخلص المخطئين، على حد تعبير الإنجيل..

وعند النصارى صور مخزية لا تقل شناعة عن عقيـدة اليهود في الأنبيـاء وكلها ترميهم باقتراف الآثام وارتكاب الجرائم مما لا يقبله عقل ولا نقل.

يقول المرحوم محمد رشيد رضا في كتابه (الـوحي المحمدي) مـا نصه: (إذا كـان إرسال الأنبيـاء إلى البشر، لأجـل هدايتهم إلى تـزكية أنفسهم، بمـا تصلـح به أحـوالهم في دنياهم، ويستعـدون به لحيـاة أعلى من هـذه الحيـاة الـدنيـا في نشـأة

أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يُقتدَى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب (عصمة الأنبياء) من المعاصي والرذائل وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر والكبائر. قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعضَ كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرّئة على الشرور والمفاسد.

والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإلّه، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره، لأن المخطىء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء، وكتبهم، وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين (القديم والجديد) المقدسة عندهم، المحرّفة في اعتقادنا، لا تشهد لهم برمي جميع الأنبياء بالذنوب، فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فإن (يوحنا المعمدان)[1] لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم، بما يدل على أنه أعظم من المسيح في عصمته ففي إنجيل (لوقا) جاء قوله: (إنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس).

وفيه أيضاً يقول: (كانت يد الرب معه).

وقال المسيح فيه: (الحق أقول لكم إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان)[2].

(١) هو يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام.

(٢) إنجيل متى، إصحاح (١١).

بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه وإخوته، ولم يسمح لهم بلقائه، وقد استأذنوا عليه ليكلموه، جاء في إنجيل (لوقا): فأخبروه قائلين: أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك، فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها».

يقول السيد رشيد رضا:

نعم إن إخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر، ولكن هل كانت أمه كذلك؟ وهل يجازيها هذا الجزاء؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين، وإهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب.. ونحن نبرئه من كل ذلك)[1].

والخلاصة: إن عقيدة المسلمين في الأنبياء هي العقيدة الحقة الصافية، التي جاء بها القرآن الكريم، وشهد بها واقع حياتهم الطاهرة الشريفة، وهي التي تتناسب مع مقامهم العالي، ومنزلتهم الرفيعة، والقول «بعصمة الأنبياء» والاعتقاد بطهارتهم ونزاهتهم، هو ما يتفق مع النصوص القرآنية المجيدة، في جعلهم أئمة الدنيا والدين، وحملهم لواء الدعوة والهداية للعالمين وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه:

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[2].

ولا بد في القدوة أن يكون كاملاً، ولا بد في النبي أن يكون معصوماً.. هذا ما يقتضيه العقل، ويوجبه الشرع وسنتعرض في مكانٍ آخر إن شاء الله لدفع بعض الشبهات عن (عصمة الأنبياء) ليظهر الحق، وينبثق ضياؤه، والله ولينا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) الوحي المحمدي ص ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

شبهات حول عصمة الأنبياء والرد عليها

ـ ٣ ـ

وقد يقول قائل: كيف يكون الأنبياء «معصومين» مع أن القرآن الكريم قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية فقال في حق آدم:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾(١).

وقال في حق نوح:

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢).

وقال لسيد المرسلين:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . .﴾(٣)؟؟.

وللجواب على ذلك نقول:

«إن العصمة للأنبياء ثابتة كما دلت على ذلك النصوص القرآنية الكريمة، وكما قضى بذلك المنطق العلمي السليم. . إذ كيف يأمر عز وجل البشر باتباعهم والاقتداء بهم، والسير على نهجهم إن لم يكونوا مثالاً للكمال، ونموذجاً للفضل

(١) سورة طه: الآية (١٢١).
(٢) سورة هود: الآية (٤٦).
(٣) سورة الفتح: الآية (٢).

والنبـل والطهـر!! ولو لم تكن (العصمـة) من صفاتهم لمـا كنا مكلفين بـاتباعهم في جميـع الأعمال والأفعال!.

أمـا ما ورد من بعض النصـوص الشـرعيـة، التي يـدل ظـاهـرهـا على وقـوع المعـاصي والمخالفـات من بعض الأنبيـاء صلوات الله عليهم، فهي محمـولـة على بعض الوجوه الآتية:

أولاً: إنها ليست معصية وإنما هي فعل خلاف الأولى.

ثانياً: إنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد.

ثالثاً: على فرض أنها مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة.

وإنَّمـا قلنا ذلـك، لأنه من المستحيـل أن يثني الله تبارك وتعـالى عليهم ذلـك الثناء العاطر، وهم غارقون في أنواع الموبقات والمنكرات، ونسمـع فيهم مثل قـوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ٩٠ ... ﴾[1].

أي تـأسَّ بهم يا محمد في سيرتهم العاطرة، وأخلاقهم الزكية، وفي عفَّتهم، وطهارتهم، ونقائهم!! وأن نقرأ مثل قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ ﴾[2].

* * *

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام

ــ ٤ ــ

معصية آدم عليه السلام، التي صرح القرآن بها في قوله تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١].

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾.

والاجتباء هو اصطفاء الله له بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أن «آدم» عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا[٢] إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٣].

وقيل: إن آدم عليه السلام لما نُهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى:

---

(١) سورة طه: الآيتان (١٢١ ــ ١٢٢).

(٢) يقال: عهدت إليه بكذا، أي أمرته بكذا والمعنى: أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فنسي هذا الأمر ولم نجد له عزماً على المعصية.

(٣) سورة طه: الآية (١١٥).

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾، ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرىٰ من جنسها فخالف الأمر، وكان ذلك باجتهاد منه، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة.

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول: إن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وكما قال تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(١)..

ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾.. وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي: أو نقول: إن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنار.

جاء في تفسير المنار الجزء الأول صفحة (٣٨٠) قوله:

(وأما مسألة عصمة آدم، فالجري على طريقه السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه، كسائر ما ورد في القصة، مما لا يركن العقل إلى ظاهره، ولنا أن نقول: إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه: ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً﴾.. والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً.. والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة).

وأما (ابن العربي) رحمه الله فقد رجح الأول، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن ما نصُّه:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(كم قال في تنزيه الأنبياء من الذي لا يليق بمنزلتهم، مما ينسبه الجهلة إليهم – من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، وحاشا لله – فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبيين!! ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها متعمداً ناسياً، فقيل في تعمده (وعصى آدم ربه).. وقيل في بيان عذره:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1].

ونظيرها: أن يحلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد، ناس، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان. وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى، تحقيراً وتعذيباً، ويعود عليه بفضله فيقول: نسي، تنزيهاً.

ثم قال رحمه الله:

(ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يُخبِر بذلك (أي بعصيان آدم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبيِّ المقدَّمِ، الذي عَذَره الله، وتاب عليه، وغفر له)[2]!!

وقال العلامة القرطبي رحمه الله:

(واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها، فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها، وقيل: أكلها ناسياً، وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتماً وجزماً فقال: ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ من قبلُ فنسي ولم نجد له عزماً﴾.

(١) سورة طه: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام لابن العربي المالكي ٣/١٢٤٩.

ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ، لكثرة معارفهم، وعلو منازلهم، ما لا يلزم غيرهم، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً، أي مخالفاً. قال أبو أمامة: «لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق، إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ولم نجد له عزماً﴾[1].

إذاً يتوضح لنا من أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل، وإنما أكل من الشجرة متأولاً، بطريق الاجتهاد، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى، فعاتبه ربه بإخراجه من الجنة وإنزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلٓهية سابقة، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾!.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي ١/٣٠٦.

عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

ـ ٥ ـ

وأما بالنسبة لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة، ظاهرها يفيد عدم العصمة.. وهذا الظاهر غير مراد لأنه يعارض نصوصاً أخرى، ولا بد حين الجمع بين هذه النصوص، من فهمها على الوجه الذي يتفق مع عقيدة المسلم بـ (عصمة الأنبياء) الكرام.

أما النص الأول فهو في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ[1] ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

فهذه الآيات الكريمة توهم بظاهرها أن إبراهيم كان شاكاً في الله، جاهلاً بعظمته، لا يدري من هو الإلّه المستحق للعبادة!.

---

(١) جَنَّ: بمعنى أظلم واشتد ظلامه، أفل: بمعنى غاب، بازغاً: طالعاً.

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٧٦ ـ ٧٩).

وقد يظن بعض الناس أن (إبراهيم) عليه السلام كان متأثراً ببيئة قومه، وأنه في بدء نشأته عبد معهم الكواكب. كما عبد الشمس والقمر، وهذا جهل فاضح وخطأ مبين، لا يصدر إلا عمن جهل صفات الأنبياء الكرام، ولم يفقه معاني القرآن الحكيم..

فالله ــ جل ثناؤه ــ قد أخبر عن نبيه وخليله (إبراهيم) عليه السلام، بأنه قد أطلعه على ملكوت السموات والأرض، وأنه كان من المؤمنين الموحدين، الكاملين في الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه كمال الرشد منذ الصغر، وأعطاه الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد، ما كان يغلبه أحد، استمع إلى صدر الآيات الكريمة، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقين إبراهيم فيقول جل ثناؤه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا...﴾[١].

فالله عز وجل أعطى إبراهيم الحجج المقنعة، والبراهين الساطعة، التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم، فهو يجادل أباه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾؟ ثم يصفه وقومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فيقول: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ثم يأتي البرهان على كمال يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (٧٤ ــ ٧٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٥).

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله، وفي تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم: هذا ربي، ثم عن القمر ثم عن الشمس، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان.. ولهذا ختم الله عز وجل هذه القصة بقوله جل وعلا:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ولقد ذكر العلامة (الزمخشري) كلاماً رائعاً هو في منتهى الجودة والإتقان ننقل طرفاً منه حول تفسير هذه الآيات الكريمة، قال رحمه الله:

(وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدِثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبّراً دبر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها.. وقول إبراهيم (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة حيث يقول ﴿لا أحب الآفلين﴾ أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام، وقوله:

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٧).

تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلـهاً ـ وهـو نظيـر الكواكب في الأفـول ـ فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه)[1].

فـالقصة التي سـاقها القـرآن الكـريم، إنمـا تـرمـز إلى أسلوب الإقنـاع وقـوة الحجة، التي أعطاها الله سبحانه وتعالى، لنبيه وخليله إبراهيم عليـه السلام، وكيف استطاع أن يفحم قومـه في إقامـة البرهـان على وجود الله، وأن يبـرهن لهم ضلالهم وخطأهم في عبادة الكواكب والشمس والقمر. . . ويظهر أن إبراهيم عليه السلام قد سلك معهم أيسر الطرق لبلوغ غـرضه، فلم يجـابههم بالضـلال، وإنما تـدرج معهم فادعى أن (الكوكب) الذي رآه ساطعاً في السماء هو ربه، وذلك ليستأنسوا بكلامـه، ثم لما غاب الكوكب أنكر إبـراهيم أن يكون هـذا الكوكب صـالحاً.لأن يكـون ربه، لأنه متغير متنقـل، وذلك عـلامة الحـدوث. . ثم لما رأى (القمـر) بازغـاً مضيئاً في السمـاء، قال: هـذا ربـي، فلما غـاب القمر ولم يعـد له نـور، أنكر أن يكـون ربـاً معبـوداً، وهنا لمَّـح إبـراهيم إلى ضلالهم، ولكن بـأسلوب في منتهى الحكمة حيث قـال ﴿لئن لم يهدني ربـي لأكـونن من القوم الضـالين﴾ فما عـرض إلى التصـريح بضلالهم وإنما اتَّهم نفسـه بالضـلالة، إن عبـد هذا الإلـه المتحرك المتنقـل، الذي تظهر عليه علامات الحدوث، وقـوله: (من القـوم الضالين) تلميـح بضـلال من عبد القمر.

ثم لمـا بزغت الشمس، وسـطعت بأشعتهـا الذهبيـة على الكـون، وأضـاءت الوجود، قال: هذه الشمس ربـي فهي أكبر المخلوقات وهي أحق بالعبادة من سـائر النجـوم والكواكب، وقـال ذلك ليقيم الحجـة على ضلالهم، فلمـا غابت الشمس، وتوارت خلف الأفق، ولم يعد لها ضياء أو نور. . صرح هنـالك بضـلال من يعبدهـا أو يعبـد تلك المحدثـات، وتبرأ من قـومه ومن عبـادتهم لها وذلـك بعـد أن ظهـرت الحجة، وتبلـج الحق، وبلـغ من الظهور غاية المقصود، :

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٤٠.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إلى قوله تبارك وتعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[2].

فظهر أن هذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله، ولم تكن جهلاً بالخالق جل وعلا.. وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه، عن طريق البرهان والاستدلال، وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة.

يقول (ابن العربي) في أحكام القرآن:

(والذي أوتيه إبراهيم عليه السلام من العلم بالحجة، بظهور دلالة التوحيد، وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى، والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً، ولم يكن اعتقاداً)[3].

فمن ظن بإبراهيم الشك، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب، فقد جانب الحق، وأخطأ الفهم، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين... وكيف يكون ذلك والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل النبوة ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾!!.

أما النص الثاني الذي يوهم عدم العصمة فهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٧٨ ـ ٧٩).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٣).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٣٢.

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ [1] إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

فإن هذا النص الكريم قد يفهم منه أن إبراهيم الخليل كان شاكاً في قدرة الله على إحياء الموتى.. وهذا الفهم غير سليم. فمعاذ الله أن يشك إبراهيم في ربه أو في قدرة الله تعالى، وهو أبو الأنبياء الذي وضع أسس التوحيد، وبنى أول بيت لعبادة الواحد القيوم.. فإبراهيم عليه السلام إنما سأل عن الكيفية ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ولم يسأل عن الماهية فلم يقل: هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى؟ والسؤال عن الكيفية إنما هو بقصد الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلّهية.

يقول الشيخ (أحمد المنير) في تعليقه على تفسير الكشاف ما نصه:

(أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الموتَىٰ﴾؟ فليس عن شك ـ والعياذ بالله ـ في قدرة الله على الإحياء.. ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء. ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها. فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه.. ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال، أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه يسأل عن كيفية حكمه لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية.. وقد قطع النبيّ عليه الصلاة والسلام دابر الوهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم[3] أي ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى.. وأراد بقوله (أولم تؤمن؟) أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة

---

(١) ﴿فَصُرْهنَّ إليكَ﴾: أي أضممهن إليك.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

(٣) الحديث أخرجه البخاري ٦/٢٩٤ فتح الباري، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١١٥ في التفسير، وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في شرح الحديث.

الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك)[١].

ويقول (سيد قطب) عليه رحمة الله في تفسيره الظلال عند هذه الآية الكريمة: ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى..﴾؟ الآية، ما نصُّه:

(إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلٓهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأوّاه، الحليم، المؤمن، الراضي، الخاشع، العابد، القريب، الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عمَّا يختلج أحياناً من الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٓهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلٓهي، في أثناء وقوعه العملي.. ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان!.)[٢].

ما هي الكذبات الثلاث؟:

أما ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى (عدم العصمة) بحق إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله عليه السلام:

«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله، قوله ﴿إني سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾.. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على

(١) تفسير الكشاف ١/٣٠٨.
(٢) في ظلال القرآن ٣/٤٥.

جبَّار من الجبابرة، فقيل له: إن هـهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتـي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي.. فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتي بها، وقام إبراهيم يصلي، فلما دخلت عليه ذهب يتنـاولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقـال: ادعي الله لي ولا أضرك.. فـدعت الله فـأطلق، فدعـا بعض حجبته فقـال: إنـك لم تـأتني بـإنسـان إنمـا أتيتني بشيـطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومـأ بيده مَهْيم؟ قـالت: رد الله كيد الكافـر في نحره، وأخدمني هاجر.. قـال أبو هـريرة: تلك أمكم يـا بني مـاء السمـاء» رواه البخاري ومسلم.

فهـذا الحديث الشـريف ليس فيه مـا يدل على عـدم العصمة، لأن النبـي ﷺ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب: إنما قصد أن إبراهيم الخليـل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليست بكـذب في الحقيقة والـواقـع. فقول إبراهيم لقومه: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ إنما هو نوع من التهكم والسخـريـة بهم وبـآلهتهم المعبـودة فـأراد بقـولـه: ﴿إني سقيم﴾ المعنى المجـازي: أي إني سقيم من عبـادتكم لهـذه الأصنـام، التي لا تسمـع ولا تنفـع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً.. وكما يكون الإنسان سقيم الجسم يكـون سقيم النفس وخاصة إذا رأى قومه في الجهالة والضلالة يتيهون، ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا في ضلالتهم يعمهون!.

وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ لم يكن في الحقيقة كـذباً وإنمـا هو نـوع من الحجة الدامغة، والبرهان السـاطـع أراد أن يقيمـه إبراهيم على قـومه فحين سـألوه: من حـطم هـذه الأصنـام؟ أشـار إلى الصنم الأكبـر، سخـريـة وتهكمـاً بهم وبهـذه

الأصنام، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾؟.

وأما قوله لزوجته سارة: (إنك أختي) فإنما قصد به أخوة العقيدة وأخوة الإيمان كما قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ولم يقصد به أخوة النسب لأنها زوجته وليست أخته. وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذي يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله، وقد روي: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1] أي إن في التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع في الكذب المحرم. فليس إذاً في كلام إبراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذي يخل بعصمة الأنبياء وإنما هو نوع من التعريض المباح. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ترجمة ٨/٥٧ بابٌ المعاريضُ مندوحةٌ عن الكذب.

عصمة يوسف الصّديق عليه السلام

ـ ٦ ـ

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام، التي قصها علينا القرآن الكريم، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته، مع ما أعطاه الله عز وجل من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد، وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهُوْجُ، والمكائد المدبرة، التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(١).

افتراء وبهتان:

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البسطاء السُذَّج، ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم، قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٣٠ ـ ٣١).

أو تذكر في كتب التفسير، وقد نبه عليها العلماء الأثبات، والحفاظ الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة، وتتنافى مع (عصمة الأنبياء) الأطهار.

من هذه الروايات الباطلة المفتراة على الصديق يوسف عليه السلام، أنه حين راودته امرأة العزيز عن نفسها، وطلبت منه أن يواقعها، استجاب لها واستكان، وحاول أن يرتكب معها الفاحشة وأنه عليه السلام حلَّ سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهمَّ أن يواقعها وهي مستلقية على قفاها، ولكنه سمع صوتاً يناديه، وتصور له والده «يعقوب» عليه السلام وهو عاض على أصابعه.. تصور له على جدار الغرفة، فخجل واستحيا وترك ما كان قد همَّ عليه من فعل الفاحشة بزوجة عزيز مصر.. وقد نسي هؤلاء الزاعمون أن «يوسف الصديق» نبي مكرم، وأن الله قد حفظه وصانه من رجس المعاصي والفواحش، وأي منكر أعظم، وأية فاحشة أكبر من ارتكاب الزنى، ثم خيانة سيده الذي تعهده ورباه، وأحسن نُزُله ومثواه؟!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا... ﴾[1] الآية.

ولم يَنْسَ يوسف الصدِّيق هذه المعاملة الحسنة من سيده، بل ذكر امرأة العزيز حين راودته عن نفسها بهذا الجميل والإحسان الذي فعله معه سيده وأسداه إليه، فكيف يخونه في شرفه وعرضه؟

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

إن الزنى جريمة من أبشع الجرائم، حرَّمتْها الأديانُ السماوية، فكيف يرتكبها نبي من أنبياء الله؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!!.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢١).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٣). ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أحسنَ مَثْوايَ﴾ أي إن زوجك هو سيدي ومالك أمري، أحسنَ إقامتي وضيافتي، فكيف أخونه في أهله؟

والـذي جعل هؤلاء يخبـطون خبط عشـواء، في قبـول أمثـال هـذه الأبـاطيـل والأكـاذيب، المنقولـة عن الإسرائيليـات، هو النصُّ القـرآني الكـريم، الـذي جـاء في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام، والذي فهمه هؤلاء البسـطاء فهماً خـاطئاً، لا يتفق مـع عصمة الأنبياء، ولا ينسجم مـع النصوص القرآنية الأخرى.

ذلك النص هو قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ. . . ﴾[1] الآية.

فقـد فسروا الهمَّ من يـوسف على أنه مـطاوعة منـه لامرأة العـزيز، وعـزمٌعلى قربانها. وفسروا البرهان على أنـه الصورة التي ظهـر بها والـده يعقوب عليـه السلام وهو يعض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيـح.

وهذا التأويل باطل لا يجوز بحال من الأحوال، للوجـوه الآتية التي سنـذكرهـا فيما بعد إن شاء الله. . وقد نبـه كثير من المفسـرين إلى أمثال هـذه الإسرائيليـات، وبينوا بطلانهـا لئلا ينخـدع بعض المسلمين بها فيـظنوا أنهـا أخبار حقيقيـة موثـوقة، يقول العلامة الشيـخ عبد الله بن أحمد النسفي في تفسيره:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ الطباع مـع الامتناع، ولو كان همُّه كهمِّهـا، لما مَـدَحه الله تعـالى بأنـه من عباده المخلصين. وفيـه إشعار بـالفـرق بين الهمَّين، وما قيل: إنه قعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها. . وفسروا «البرهان» بأنه سمـع صوتـاً يناديـه: إيَّاك وإيَّـاها مـرتين، ثم سمع في الثـالثة: أعـرض عنها، فلم ينجـع فيـه (أي لم ينفـع فيـه ذلـك النـداء) حتى مثـل لـه يعقـوب عـاضّـاً على أنملته. . . إلـخ، قال الشيـخ: فهذا باطل ويدلُّ على بـطلانه قـوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه لمـا برَّأ نفسـه من ذلك، وقـوله ﴿ذلـك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب﴾ ولـو كان ذلـك لخانـه بالغيب، وقـوله ﴿كـذلك لنصـرف عنه السـوء والفحشاء﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه إلـخ.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٤).

أقول: إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق، ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم، دقيق البصر، ذلك أن الهمَّ الذي وقع من امرأة العزيز كان همَّ سوء، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة، ومن أجل ذلك راودته عن نفسه بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(1).

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق فلم يكن همَّ سوء، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة، وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادة السوء أو عمل الفاحشة.. وإنما كان همُّه أن يدفع العدوان عنه، أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز.. ولهذا نجد الصلابة في موقفه، والمقاومة العنيفة في حديثه ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

فالهمُّ منها غير الهمِّ منه، همَّت به طلباً، وهمَّ بها دفعاً كما يقول بعض المفسرين.

أو نقول: إن الهم منها وقع فعلاً، وأمَّا همَّ يوسف فكان بالطبع، أي إنَّه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفة السوء، والإنسان غير مؤاخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشيء.. وهذا ما فسره به (النسفي) رحمه الله حيث قال: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الامتناع.

ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى: ﴿لَوْلَا أَنْ

---

(1) سورة يوسف: الآية (٢٣).

رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ المعنى لولا برهان الله، أي: عصمته ليوسف لهمَّ بها، ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم.

وهناك أقوال أخرى للمفسرين تبرىء ساحته عليه السلام مما نسبه إليه أهل الكتاب وقبِله بعض البسطاء من المسلمين من الإسرائيليات المكذوبة.

الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

وهناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.. ونحن نوجزها فيما يلي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

الوجه الثاني: فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق، وأرادته ليُمتع نفسها بالغصْبِ والإكراه، ولو كان يوسف قد همَّ بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم ولا يفر قال تعالى:

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ...﴾[2] الآية.

الوجه الثالث: شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف، قال تعالى:

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٣).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٥).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(١).

وقيل: إن الذي شهد هو طفل كان في المهد أنطقه الله بهذه الحجة الدامغة لتظهر براءة يوسف عليه السلام، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد، ولا عجب فالله على كل شيء قدير.

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢).

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام، إذ كيف يُعقل أن يفضِّل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها، وطاوعها على نفسها، لما لبث في السجن بضع سنين، بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به. فدعوى هَمِّ يوسف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهر البطلان، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم، وفهم معاني القرآن العظيم.

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(٣).

وقال تعالى في صدر هذه القصة:

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٦).
(٢) سورة يوسف: الآية (٣٣).
(٣) سورة يوسف: الآية (٢٤).

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ . . . ﴾[1].

فقد أخبر الله تعالى عنه بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلّا على من صفت نفسه، وطهرت سريرته من كل نية سيئة، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟ وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى، وبالطهارة والاستقامة فقال صلوات الله عليه: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابنِ الكريم، ابنِ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ، بنِ إسحٰقَ، بنِ إبراهيم»[2].

وكفى بذلك شرفاً وفضلاً!!

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ . . . ﴾[3] الآية.

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة، ولفظ (استعصم) يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به بعض الناس (الهمَّ والبرهان) كما أسلفنا بطلانه فيما سبق.

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٢٢ ـ ٢٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء والتفسير ٣٦١/٨ من فتح الباري؛ وأحمد في المسند ٩٦/٢؛ والترمذي في التفسير أيضاً.

الوجه السابع: ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين، ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنه إيهاماً للناس وستراً على زوجته قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[1].

قال العلامة النسفي في تفسيره:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم والضمير يعود للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي الشواهد على براءة يوسف كقدِّ القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبي، وغير ذلك ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ لإبداء عذر الحال.. وإرخاء السّتر على القيل والقال، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطاوعاً لها، وجَمَلاً ذلولاً زمامُه في يدها، ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه[2].

الوجه الثامن: استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٤)﴾[3].

الوجه التاسع: عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته، وعفته، ونزاهته، ولولا ذلك لما فضّل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه

(١) سورة يوسف: الآية (٣٥).
(٢) تفسير النسفي ٢/٢٢١.
(٣) سورة يوسف: الآية (٣٤).

الشدائد، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهمة الشنيعة:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[1].

الوجه العاشر: وأخيراً الاعتراف الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في براءة يوسف ونزاهته وعصمته مما نسب إليه وذلك حين جمع العزيز النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[2].

هذه عشرة وجوه في عصمة الصديق يوسف عليه السلام وبراءته مما نُسب إليه من الزور والبهتان، اقتبستها من القرآن الكريم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

— ٧ —

ما ورد بشأن نوح عليه السلام:

ومن هذه النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية (٥٠).
(٢) سورة يوسف: الآيتان (٥١ ــ ٥٢).
(٣) سورة هود: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦).

فنوح عليه السلام إنما سأل ربه أن ينجي ولده، لأن الله عز وجل قد وعده بإنجاء أهله وإهلاك الظالمين، وولده من أهله، وكان ابنه قد وعده بالإيمان، فطلب من الله أن ينجيه من الغرق اعتقاداً منه بأن ولده على دينه، ولم يعلم بحقيقة كفره إلا بعد أن أظهر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إنه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، لأنه غير مؤمن، وقد وعدتك بإنجاء المؤمنين، عند ذلك تبرأ نوح من ولده.

ثم إن نوحاً عليه السلام لم يرتكب هنا معصية أو إثماً، وإنما دعا الله أن ينجي ولده، وأخذته الشفقة والعاطفة الأبوية، بكونه بشراً وأباً رحيماً فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان، لينجو من الغرق، فأخبره الله تعالى بأنه قد سبقت له الشقاوة وأنه من الهالكين.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة:

«وقد كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه، لأنه كان ينافق، وإلاَّ لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(١).

فكان نوح يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون لنبينا عليه السلام الموافقة، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه، وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: من الذين وعدتك النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والعلن(٢).

---

(١) سورة هود: االآية (٣٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي ٢/١٩٢.

— ٨ —

ما ورد بشأن يونس عليه السلام:

ومن النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة يونس عليه السلام:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

فإن ظاهر هذه الآية قد يوهم أن (يونس) عليه السلام قد فعل ما أغضب الله عز وجل، وأنه شك في قدرة الله على الانتقام منه، وهذا فهم خاطىء وتفسير للآية الكريمة على غير معناها الصحيح، وقد وقع في هذا الوهم بعض الجهلاء، فظنوا أن (يونس) عليه السلام قد وقع في المعصية، وخالف أمر الله فذهب مغاضباً لربه، فابتلعه الحوت بسبب هذا الذنب.

والصحيح الذي ذكره المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة أن (يونس) عليه السلام كان قد أنذر قومه، وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فتمادوا في ضلالهم وكفرهم فأوعدهم بالعذاب العاجل، فلما تأخر عنهم العذاب، خرج كالمستور منهم ليتوارى عن أنظارهم، خشية أن يهزءوا منه ويسخروا، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل، فخرج مغاضباً لقومه، لا مغاضباً لربه ـ وحاشاه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام أن يغضب ربه، أو يعصي له أمراً. قال الشيخ أبو البركات عبد الله النسفي في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿وذا النون إذْ ذهب مغاضباً...﴾ الآية المعنى: آذكر صاحب الحوت، والنون الحوت فأضيف إليه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي: مراغماً لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته، لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها.. روى أنه بَرِم[٢] بهم لطول ما ذكرهم، فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٨٧ ــ ٨٨). (٢) برم بهم: أي ضاق ذرعاً بتكذيبهم له.

ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت. .[1].

فالمغاضبة كانت لقومه لا لربه، والمعاتبة كانت لعدم الصبر، ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله تعالى، ولهذا أمر الله رسوله الكريم، أن يصبر على تكذيب المشركين، وألّا يكون ضيق الصدر، قليل الصبر كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه، حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز من قائل:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب «لولا» ومعلوم أن «لولا» في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط. . ومعنى الآية الكريمة: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت (بالعراء) أي بالفضاء وهو (مذموم) أي معاتب بزلته، لكنه رحم فنبذ غير مذموم.

وأما قوله تعالى في الآية السابقة:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[3].

فهي من القَدْر[4] لا من القدرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روي أنه دخل يوماً على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج البحر البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك، فقال ابن عباس وما هي يا معاوية؟

---

(١) تفسير النسفي الجزء الثالث ص ٨٧.
(٢) سورة القلم: الآيات (٤٨ ــ ٥٠).
(٣) سورة الأنبياء: الآية ؛٨٧).
(٤) القَدْر: بمعنى التشديد والتضييق كقوله سبحانه ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه﴾ أي ضُيِّق عليه.

فقرأ الآية ثم قال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ربه؟ فقال ابن عباس: **هذا من القدر لا من القدرة**، والمعنى: **فظن أن لن نضيق عليه بسبب خروجه بغير إذننا قال** تعالى: ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه﴾ أي: ضيق، وقال تعالى:

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1].

أي: ضيق عليه رزقه، فزال بذلك الإشكال، والله أعلم.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية (١٦).

عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم

ـ ٩ ـ

والرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ كبقية الرسل الكرام ـ معصوم من الذنوب والآثام، محفوظ بعناية الله عز وجل، محاط برعايته، فلا يمكن أن تقع منه مخالفة لأمر الله، أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة.

ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأفضل والأحسن فيعاتبه ربه.. وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وإن كان بالنسبة لمقام الأنبياء يعتبر فعل خلاف الأفضل خطأ يستحق عليه المؤاخذة والعتاب على حد قول بعضهم: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وسنعرض إلى بعض نصوص كريمة ورد فيها العتاب لرسول الله ﷺ ونبين فيها وجه الحق وما ورد فيها من العتاب، كما نعرض لنصوص أخرى ظاهرها يفيد وقوع الرسول في المخالفة والمعصية ونوضح معناها على ضوء أقوال أئمة التفسير، وضوء الكتاب والسنة، فنقول ومن الله نستمد العون:

ـ ١٠ ـ

النص الأول: قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ ـ ٦٨).

النص الثاني: قال تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[1].

النص الثالث: قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾[2].

النص الرابع: قال تعالى:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[3].

النص الخامس: قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[4].

النص السادس: قوله تعالى:

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٤٣).
(٢) سورة عبس: الآيات (١ ــ ٤).
(٣) سورة الإسراء: الآيات (٧٣ ــ ٧٥).
(٤) سورة الأحزاب: الآيتان (١ ــ ٢).
(٥) سورة يونس: الآية (٩٤).

النص السابع : قوله تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١) .

النص الثامن : قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) .

النص التاسع : قوله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(٣) .

النص العاشر : قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(٤) .

العتاب في أسرى بدر :

أما الآية الأولى التي فيها عتاب للرسول ﷺ، والتي توهم أن الرسول الكريم قد خالف أمر الله ، وأنه فعل ما لم يرض به الله ، فهي قوله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : الآية (٣٥) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٥٢) .

(٣) سورة الفتح : الآيتان (١ ــ ٢) .

(٤) سورة الأحزاب : الآية (٣٧) .

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ولعل بعض البسطاء يظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ارتكب ذنباً، أو فعل جرماً، أو عصى أمراً لرب العالمين، حتى نزل هذا العتاب الشديد مع أن الأمر ليس كما يظنون، وإنما غايته أن الرسول ﷺ قد استشار بعض الصحابة في (أسرى بدر) ثم اجتهد فحكم بترجيح رأي الأكثرين، فقبل الفداء من الأسرى، وكان هذا الاجتهاد منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن والأولى، لأن مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام كانت تقتضي ألا يقبل عليه الصلاة والسلام منهم الفداء، بل يسفك ويريق منهم الدماء، لتضعف شوكة الكفر، وتهن عزيمة المشركين، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين لا سيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين.

ونذكر هنا بعض الروايات لأصحاب التفسير بالمأثور حول نزول هذه الآية الكريمة:

١ ـ روى الترمذي والحاكم والبيهقي، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال:

(لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك، وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرموه عليهم ناراً.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ ــ ٦٨).

فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك.

فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس يأخذ برأي عمر رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن.. وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة.

مَثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ قال:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿ربِّ لا تذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديّاراً﴾ ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٣).

ثم قال عليه السلام: «أنتم عالةٌ فلا ينفلتنّ أحد منكم إلاَّ بفداء أو ضرب عنق فقال عبد الله: يا رسول الله إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء... فأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾(٤) الآية.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).
(٢) سورة المائدة: الآية (١١٨).
(٣) سورة يونس: الآية (٨٨).
(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٧).

وَرَوَىٰ أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(لمَّا أسروا الأسرى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ فقال: لا والله يا رسول الله لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل (أي أخيه) فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان ــ قريب لعمر ــ فأضرب عنقه، وتمكِّنَ فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهويَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلمَّا كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان.. قلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟! فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة ــ لشجرة قريبة منه ــ وأنزل الله عز وجل:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾[1] الآية).

فقد دل هذا الحديث الشريف على أن الذين أشاروا على الرسول ﷺ بأخذ الفداء كثيرون وإنما ذكر في أكثر الروايات (أبو بكر) رضي الله عنه لأنه أول من أشار بذلك فقد استشاره ﷺ أول ما استشار أصحابه، كما أنه أكبرهم مقاماً وأحبهم إلى رسول الله ﷺ.

فهذا العتاب الشديد من الله عز وجل لنبيه ولأصحابه الأبرار، كان بقصد التعليم والتنبيه إلى الأخذ بالأكمل والأفضل والتريث في مثل هذه الأمور الدقيقة،

---

(١) انظر صحيح الإمام مسلم ٣/١٣٨٥.

فالله عز وجل يريد عزة الإسلام ورفعة شأنه. . وقد قال (ابن عباس) رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ قال: ذلك إنما كان يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا، واشتد سلطانهم أنزل الله في الاسارى: ﴿فإما مناً بعد وإما فداءً﴾ فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسرى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم (أي أطلقوا سراحهم مقابل الفداء). وقد أشارت الآية الكريمة إلى أن هذا الأمر لما كان عن اجتهاد ومشاروة من الرسول ﷺ لأصحابه وأن الله عز وجل سبقت حكمته الأزلية ألا يؤاخذ المؤمنين على ما وقع منهم خطأً بطريق الاجتهاد، لذلك أعقبها تعالى بقوله:

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

العتاب في الإذن للمنافقين:

أما الآية الكريمة الثانية وهي قوله تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٢).

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام، وغاية ما في الأمر أن الله عز وجل عاتبه لكونه أذن لبعض المنافقين في ترك الخروج للجهاد، لما اعتذروا إليه من عدم الاستطاعة، فنزل العتاب من الله عز وجل له.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يعيِّره بالذنب.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

(٢) سورة التوبة: الآية (٤٣).

وقال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما، إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

ويرى بعض المفسرين أن الآية الكريمة لا تشير حتى للعتاب فضلاً عن وقوع الذنب، وذلك أن الله عز وجل وقّره، ورفع منزلته بافتتاح الكلام بالدعاء له كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريما عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألاَ زُرتَني؟ وهذا ما ذهب إليه الإمام الرازي والبغوي وغيرهما.

وقد أساء (الزمخشري) الأدب في تفسيره عند قول الله تعالى لنبيه: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم...؟﴾ الآية، حيث قال ما نصه:

(﴿عفا الله عنك﴾ كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها معناه: أخطأت وبئس ما فعلت و﴿لم أذنت لهم﴾؟ بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإذن ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه).

وقد ذكر صاحب (تفسير المنار) كلاماً لطيفاً في منتهى الإبداع والإتقان ننقل طرفاً منه حيث قال رحمه الله:

(هذا وإن بعض المفسرين ـ ولا سيما الزمخشري ـ قد أساءوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية، وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه، إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب، وهو منتهى التكريم واللطف، وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر، فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب، وغايته أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى... ثم قال: والذنب في اللغة ليس مرادفاً للمعصية وإنما هو كل عمل يستتبع ضرراً، أو فوت مصلحة أو منفعة، مأخوذ من ذنب الدابة، وإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تَبيُّنِ الصادقين، والعلم بالكاذبين.

وقد كان الإذن المعاتَب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل، وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، وقالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه، وغاية ما فيه هنا أنه مخالف لما يقتضيه الحزم، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير، برسوله البشير النذير، أن أخبره بالعفو عنه، قبل بيانه له. . .)[1].

النص الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

فقد تمسك بظاهر هذه الآية من زعم أن المعصية تقع من الأنبياء، وأنّ العصمة غير واجبة لهم، وهذا خطأ في الفهم، وعدم إدراك للمعنى الصحيح ومن سبب نزول الآية يتّضح أن الرسول ﷺ لم يرتكب معصية وإنما خالف الأَوْلى فنبّهه الله تعالى إلى الأكمل والأفضل.

روى ابن جرير: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: «عبد الله بن أم مكتوم» يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه رسول الله، وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين فأنزل الله: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى. . .﴾ الآيات، فلمّا نزل فيه ما نزل كرّمه رسول الله وكلّمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٠/٥٤١.

قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن جرير: والتعرض بذكر عماه، لزيادة الإنكار كأنه قيل تولّى لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيده تعطّفاً وترؤفاً، وتقريباً وترحيباً)[1].

فأنت ترى من سبب النزول أن الرسول ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش، وكان يحرِصُ على دعوتهم، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو ــ في نظره ــ أهمّ وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن.

قال الرازي: (القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء تمسّكوا بهذه الآية وقالوا: لمّا عاتبه الله في ذلك الفعل دلّ على أن ذلك الفعل كان معصية، وهذا بعيد، فإنّا قد بينا أنّ ذلك كان هو الواجب المتعيّن، إلاّ بحسب هذا الاعتبار الواحد وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول، وإذا كان كذلك كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل فلم يكن ذلك ذنباً البتّة)[2].

وأجاب ابن حزم بقوله: وأمّا قوله: ﴿عبس وتولى...﴾ الآيات، فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه بعض عظماء قريش، ورجا إسلامهم، وعلم أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثيرون وأظهر الدين، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه، فاشتغل عنه ــ عليه السلام ــ بما خاف فوته من عظيم الخير، عمّا لا يخاف فوته، وهذا غاية في النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى الله، الذي لو فعله اليوم منّا فاعل لأُجر، فعاتبه الله تعالى إذ كان الأولى عند الله أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البرّ التقي، ويترك أولئك المعاندين).

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٣٠/٥١.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٣١/٥٥.

النص الرابع: وهو قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا . . .﴾[1] الآيات.

فهذه الآيات الكريمة يدل ظاهرها على أن الرسول ﷺ قارب مسايرة المشركين والركون إليهم، وهذا ذنب عظيم وخاصة في أمر تبليغ الوحي، وهذا الأمر غير واردٍ أصلاً، فقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قبيلة (ثقيف) وكانت تسكن الطائف قالوا للنبي ﷺ: لا ندخل في دينك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، فلا يكون علينا زكاة ولا جهاد ولا صلاة، وأن كل ربا علينا فهو موضوع وكل ربا لنا فهو محفوظ لنا، فإن قالت العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني.. وطمع القوم أن يعطيهم الرسول ما طلبوا فأنزل الله هذه الآية: ﴿وإن كادوا ليَفْتِنونَك...﴾ الآية، فأنت ترى أن الرسول ﷺ لم يُجبهم وإنما عرضوا عليه عروضاً وطمعوا في أن يوافقهم الرسول على ذلك، وحاشاه ﷺ عن أن يستجيب لدعوتهم الباطلة، وأن يسايرهم على أهوائهم الفاسدة.

قال (ابن كثير) رحمه الله: (يخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومُظْهِر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها.

النص الخامس: وهو قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٧٣ ــ ٧٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان (١ ــ ٢).

فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته كما يقول الملك لقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفزع.. إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند، وينبّه الزعيم والمراد به الأمة. والدليل أن المقصود بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] الآية.

فهي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس فيه ما يدل على أن الرسول همّ بطاعة الكافرين والمنافقين، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى حذّره من مكر الكافرين، وخداع المنافقين، وأطلعه على خبيئة نفوسهم ليكون الرسول منهم على حذر، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم، وقد رُوي أنّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي ﷺ في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، فقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندعك وربَّك فشقّ ذلك على النبي وعلى المؤمنين، وهمَّ عمر ـ وكان حاضراً ـ بقتلهم فنزلت الآية[2].

وروي أن أهل مكة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة فأنزل الله ﴿يا أيها النبي اتق الله...﴾ الآية.

---

(١) سورة الطلاق: الآية (١).

(٢) ذكره في اللباب، وانظر: إرشاد العقل السليم تفسير أبي السعود ٧/٨٩.

النص السادس: وهو قوله تعالى:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شكّ الرسول ﷺ في الوحي الذي نزل عليه، وإنما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادة العرب في تقدير الشكّ ليبنى عليه ما ينفي احتمال وقوعه كما تقول لابنك (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إن وقع منك يا محمد شكّ ـ فرضاً وتقديراً ـ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك، فإنهم على علمٍ من ذلك، فالغرض وصف الأحبار بالعلم، لا وصف النبي ﷺ بالشك والريب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا والله ما شكّ رسول الله طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم» وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول الكريم: «لا أشك ولا أسأل»[2].

جاء في محاسن التأويل ما نصّه:

«لا يُفهم من هذه الآية ثبوت شكٍ له صلوات الله عليه، فإنّ صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها كقولك: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين.. والسرّ في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها لتزداد قوة اليقين، وطمأنينة القلب، وسكون الصدر، أو السرّ هو الاستدلال على تحقيق ما قصّ، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم، وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلوات الله عليه تعريضاً بالمشركين.. وقيل: الخطاب له ﷺ والمراد غيره على حدّ قولهم: (إياك أعني واسمعي يا جارة) والمعنى إن كنت

---

(١) سورة يونس: الآية (٩٤).

(٢) جامع البيان للطبري ١١/١٦٨.

أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك. . . ويؤيده: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني. . .﴾[1].

النص السابع: قوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[2].

فهذه الآية ليس فيها ما يدل على أن الرسول ﷺ اقترف ذنباً حتى عاتبه الله تعالى بهذا العتاب، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى أراد أن يخفّف عن رسوله عناء تكذيب المشركين له، وأن يطلعه على حقيقة نفوسهم، فلو جاءهم محمد رسول الله بكل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن لدعائك إلاّ من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول)[3] ولهذا قال الله تعالى عقب هذه الآية:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ. . .﴾[4].

والمراد بالموتى: الكفّار الذين لا يؤمنون ولا يستجيبون لدعوة الحق.

ففي هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه، بحيث لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقةً عليهم صلوات الله وسلامه عليه وصدق الله حيث يقول:

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٩/٣٣٩٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٤١.

(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٦).

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

النص الثامن: قوله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(2).

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ من إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب، وبلال، وعمّار، وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلّك إن طردتهم نتبعك فنزلت هذه الآية:

﴿ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربهم بالغداةِ والعشي﴾(3).

إذا علمتَ ذلك تبيّن لك أن الرسول ﷺ لم يطرد هؤلاء الضعفاء، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه حين قدوم أولئك المشركين، ليتألف قلوبهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان، فنهاه الله تعالى عن تنفيذ ذلك الهمّ وأمره أن يجعل هؤلاء الفقراء المستضعفين جلساءه وأخصاءه كما قال تعالى في سورة الكهف:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٥٢).

(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي صفحة ٢٣٢٣.

عينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

النص التاسع: قوله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . .﴾[2] **الآية.**

قال الحافظ ابن كثير: المراد بقوله تعالى: **﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾** هو صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض وتكلّم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان).

وقال (ابن القيم): (كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناسُ به، وكلَّم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشرٌ كثير في الإسلام، ولهذا سمّاه الله فتحاً)[3].

وأمّا الذنب المذكور في الآية فالمراد منه ترك الأفضل والأَوْلى قال أبو السعود: قوله تعالى: **﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾** في جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ. وجاء في التفسير الواضح: والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ ــ وهو المعصوم عن معصية ربه ــ من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه فهو من قبيل «حسنات الأبرار سيئاتُ المقرّبين» وقيل: المراد ما هو ذنب في نظره العالي، وإن لم يكن في الواقع كذلك، ولعلّ الإضافة في قوله (ذنبك) تشير إلى هذا المعنى[4].

---

(١) سورة الكهف: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفتح: الآيتان (١ ــ٢).

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم في الكلام على غزوة الحديبية.

(٤) انظر: التفسير الواضح للحجازي ٢٦/٣٩.

النص العاشر: قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . . ﴾(١) الآية.

وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومتبنّاه (زيد بن حارثة) وأن يقيموا زوبعة من الزوابع الهوج حول (عصمته) ﷺ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثم كتم هذا الحب، ثم بعد ذلك أظهره، ورغب في زينب فطلّقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله، وزعموا أن العتاب في الآية كان لكتمان حب الرسول لزينب.

وافتروا بعض الفرى الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال: سبحان مقلّب القلوب! فسمعت زينب التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلّقها حتى يتزوج بها الرسول. إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها (المستشرقون) ومن على شاكلتهم من المسلمين المزيفين، وخبّوا فيها ووضعوا، وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض، والتكلم في حق النبي الكريم، وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس. وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي دُسّت في كتب التفسير، وهي روايات باطلة لم يصحّ فيها شيء كما قال (أبو بكر بن العربي) رحمه الله.

وتفصيل الموضوع كما رواه ابن أبي حاتم من طريق السُّدي، قال: (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة رسول الله، وكان رسول الله قد أراد أن يزوجها «زيد بن حارثة» مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله فزوجها إياه، ثمّ أعلم الله عزّ وجل نبيّه ﷺ بعد

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٧).

أنها من أزواجه، فكان يستحيي أن يأمره بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوّج امرأة ابنه[1]، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

وروي عن (علي بن الحسين) أنه قال: أعلمَ اللّهُ نبيَّهُ ﷺ أنّ زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه[3].

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو (الحب) كما زعم المفترون، وإنما أخفى ما أوحى الله إليه من أمر (الزواج) بها لحكمة عظيمة وهي إبطال (حكم التبني) وقد خشي الرسول من كلام المنافقين أن يقولوا: إن محمداً تزوج بامرأة ابنه من التبني حيث كان (زيد) رضي الله عنه يدعى (زيد بن محمد).

يقول الشيخ الحجازي في التفسير الواضح:

«ومن المؤسف أن يندسّ في كتب التفسير أقوال تنسب إلى أكابر العلماء والله يعلم أنهم منها براء، أو هي في الواقع سموم إسرائيلية، وضعها من أسلم من اليهود عن حسن قصد أو سوء نيّة، ومنها ما قيل في تفسير هذه الآيات من نسبة أمور لا تليق بأيّ رجل عادي، فضلاً عن أشرف الخلق المشهود له من كافة الناس أنه رجل صادق ذو خلق حميد.

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٢/١٣؛ ومختصر تفسير ابن كثير ٣/٩٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣/٩٨.

ونظرة بسيطة إلى تـاريـخ (زينب) وظروفهـا في زواج (زيد) تجعلنـا نؤمن بأنّ سوء العشرة التي كانت بين زينب وزيد إنما هو من اختلافهما اختلافاً بيّناً في الحالة الاجتماعية، فزينب شريفة، وزيد كان بالأمس عبـداً، وقد أراد الله امتحـانها بـزواج زيد لتحطيم مبدأ العصبية القبليّة، والشرف الجاهلي، وجعـل الشرف في (الإسـلام والتقوى) فخضعت زينب مكرهـة، وأسلمت لزيـد جسدهـا دون روحها فكـان الألم والضيق.

والنبـي عليه السلام كان يعرف زينب من الصغر لأنها ابنة عمته فمن كان يمنعها منه؟ وكيف يقدّم إنسان امرأة لشخص وهي (بكر) حتى إذا تـزوجها وصـارت (ثيباً) رغب فيها؟!.

لا يا قوم: تعقلوا مـا تقولـون، وتفهَّموا الحق لـوجه الحق، تـدركوه بـلا تلبيس ولا تشويش، وانظر إليهم وهم يقولون: إن الذي أخفاه محمد هو حبه لزينب ولهـذا عوتب وهل يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لامرأة جاره؟!

ولكنَّ الحق هو أنَّ هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبـول زيد، وفي النهـاية كـان امتحانـاً قـاسيـاً للنبـي ﷺ حيث يؤمـر بـه ويعلم نهـايته، وزينب تحت مـولاه زيد، والحكمـة كما نـطق القرآن هـو تحطيم مبـدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العـرب هو (تحـريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحـريمها إذا كان الابن من النسب: ﴿لِكَيْلَا يَكُـونَ عَلَى المـؤْمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيـائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً. . .﴾.

فالذي كان يكتمه النبـي ﷺ في نفسه تَأَذِّيه من هذا الزواج، وتراخيه في إنفاذ أمر الله بـه، وخوفه من لغط الناس وبخاصة المنافقين عندما يجدون نـظام التبني قد انهار بعدما ألفوه، ولهذا فقط عوتب عليه الصلاة والسلام[1].

---

(١) التفسير الواضح للحجازي ٢٢/١٢.

أقـول: إن الآية صـريحة في هـذا الشأن، فقـد ذكرت الآيـة أنّ الله سيُـظهـر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حبّ الرسول لزينب؟ كلا، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول الزواج بها لأن الله قـد أوحى إليه بأنهـا ستكون زوجتـه، ولهذا صـرّح الباري جـل وعلا بهـذا الشيء الذي أخفاه الرسول في نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَهَا﴾.

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة، والبراهين السـاطعة التي ندل على عصمة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً، والحمـد لله رب العالمين.

• • •